علم له بعاداتهم ولا بعرفهم ، فيحكم سنة أو بضع سنين ثم يذهب عنهم ، بغير أن يحدث حدثا ، إلا أن تكون مؤامرة دموية يعقبها فتور وسبات عميق . فلما أن رأوا أن أمراءهم إذا نبغوا لا يبقون إلا قليلا ، ثم يذهبون ضحايا المنافسات والمنازعات . آلمهم ذلك مرة بعد مرة . فلما رأوا أميرهم عثمان ذو الفقار يخرج هاربا وهو حى بعد أن أحكمت المؤامرة عليه وكادت تودى بحياته ، تأثرت نفوسهم ، وتعلق الحادث بخيالهم فأرخوا به ، فما زالوا بعد ذلك مدة طويلة وهم كلما جد جديد قالوا : قد حدث ذلك الحادث بعد مقدار كذا من السنين على خروج ذى الفقار[1] .

وإذا مات عظيم أو أدخل على نظام البلاد تغيير أرخوا ذلك من خروج عثمان بك ذى الفقار ، وكان أكبر الأمراء بعد خروج عثمان بك هو حسين بك الخشاب ، فأصبح حاكم البلاد الحقيقى وقضى على ذلك خمس سنوات أخرى . غير أن تطلع الأمراء إلى الحكم كان سنة متجدده فما يكاد أمير منهم يستقر على رأس الحكم حتى يتحرك له منافسون يريدون الحلول محله ، فإذا استطاعوا عزله بسهولة تركوا له الحياة أما إذا وجدوا منه عنادا وقوة أحكموا تدبير قتله . وكان نصيب الخشاب مثل نصيب عثمان بك ذى الفقار فإنه استطاع الهرب إلى الصعيد ، وتفرق عنه أصحابه ، ففسحوا الدولة جديدة زاهره ، وهى دولة إبراهيم بك وشريكه رضوان بك .

---

(١) كتاب السيد عمر مكرم تأليف محمد فريد أبو حديد .